البديل اللفظي في البلاغة العربية

فهد أبو خضرة

تلخيص:

أتناول في هذا الحديث ثلاثة من الأنواع البلاغية التي يتمّ فيها العدول عن اللفظ الأصلي الموضوع في اللغة للتعبير عن مدلول معيّن، واستعمال لفظ آخر بديل، في الحياة والأدب، لسبب معيّن أو لغرض وظيفيّ أو فنيّ. هذه الأنواع هي: الكناية اللغوية – تحسين اللفظ أو لطف التعبير – الإرداف.

وأوّل ما يلاحظه الدارس أن الكثيرين من البلاغيين القدماءِ والمعاصرين قد خلطوا بين هذه الأنواع خلطا واضحا، وأن قسمًا منهم قد خلط بينها وبين الكناية الفنية في حالات عديدة.

وأحاول هنا، بالاعتماد على المراجع القديمة والحديثة، أن أضع حدودًا فاصلة بين هذه الأنواع من جهة، وبينها وبين الكناية الفنية من جهة أخرى، تستطيع أن تمنع الخلط بصورة تامة أو شبه تامة.

وابدأ بالكناية اللغوية[1] التي تقوم على ستر اللفظ الأصلي وإخفائه، لأسباب ذوقية أو عُرفيّة، واختيار لفظ آخر ليؤدي معناه، دون أن يكون بالضرورة منبثقا عنه أو مترتّبا عليه في الوجود.

تنحصر هذه الكناية في ثلاثة مجالات. وحصرها هذا هو الذي يميّزها عن النوعين الآخرين المذكورين أعلاه.

---

[1] انظر: أبو خضرة، فهد. **الحقيقة والمجاز**. (إصدار مجمع القاسمي للغة العربية، باقة الغربية ، 2009): 163–164. القيرواني، ابن رشيق. **العمدة** (تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد). ط4. (بيروت: دار الجيل، 1972): ج1 ص313. فياض، محمد جابر. **الكناية**. (جدة– السعودية: دار المنار، 1989). ص، 20، 13–22، 27–29 ، 34–35، 80. الجرجاني، أحمد بن محمد. **المنتخب من كنايات الأدباء وإشارات البلغاء**. (بغداد: مكتبة دار البيان، د.ت.): ص3 وما بعده. سلطان، منير: **البيان في شعر شوقي**. (الإسكندرية: منشأة المعارف، د.ت.): ص 103–109.

هذه المجالات هي:

1- مجال التفخيم والتعظيم لإنسان معيّن، وذلك باستعمال الكنية بدلا من استعمال اسم العلم الخاص به، نحو قولنا: أبو فلان وأمّ فلان، في التوجه إليهما أو الحديث عنهما، كبديل لغوي عن اسميهما.

ويمكن أن يضاف إلى هذا المجال استعمال الألقاب في سياق التوجه إلى شخص رفيع المنصب أو في سياق الحديث عنه، نحو قولنا: جلالة الملك، فخامة الرئيس، غبطة البطريرك، فضيلة الشيخ... كبديل عن ذكر اسمه الشخصي أو كنيته.

2- مجال التعمية والتغطية، وذلك باستعمال لفظ عامّ لا يدلُّ على الشخص أو الأمر المقصود، بأي صورة مباشرة أو شبه مباشرة. والهدف من هذا هو تجنّب الكشف عن المقصود تجنبا تاما.

من الأمثلة على هذا المجال قول أحد الشعراء:

ألا يا نخلةً من ذات عِرق   عليك ورحمةُ الله السلام

حيث كنى بالنخلة عن امرأة معيّنة لم يشأ كشف اسمها.

وقول شاعر آخر:

وهل أنا إن علَّلتُ نفسي بسرحةٍ   من السرح مسدود عليَّ طريق؟

حيث كنى عن المحبوبة بالسرحة. والسرحة الشجرة الطويلة العظيمة.

واستعمالنا لفظ " فلان"، حين لا نرغب في كشف هويّة شخص معيّن.

ومن هذا المجال أيضا قولنا: كذا وكذا، كناية عن العدد، وربّما عن غيره أيضا في اللهجة المحكية.

3- مجال الابتعاد عن اللفظ البذيء والخسيس، وذلك باستعمال لفظ لائق بدلا منه، نحو تجنّب القدماء والمعاصرين للّفظ المباشر الذي يدلّ على قضاء الحاجة الجسدية والأماكن الخاصة بها، واستعمال ألفاظ أخرى بديلة.

ويجدر بالملاحظة أن الألفاظ المستعملة في هذا المجال قابلة للتغيير من جيل إلى جيل حتى في المكان الواحد، وذلك لأن استعمال الناس لكناية لغويّة معيّنة مدة طويلة يجعلها تبدو في نظرهم كالتصريح، فيتركونها ويلجأون إلى كناية أخرى بدلاً منها.

وبناء على هذا المجال والمجال الأول قال البلاغيون إن الكناية هي لغة اللياقة والأناقة والذوق والتهذيب[2]، ولا شك أنهم يعنون الكناية اللغوية.

ومصطلح الكناية اللغوية مصطلح معاصر استعمل للتمييز بين هذا الفرع من الكناية وفرع آخر واسع الانتشار هو مصطلح الكناية الفنية[3]. وقد أطلق القدماء مصطلح الكناية على الفرعين دون تمييز، مما أدى إلى نوع من البلبلة أحيانا. وتجب الإشارة هنا إلى أن الغاية من الكناية اللغوية، في الماضي والحاضر، هي غاية وظيفية في الأساس، ونادرا ما تكون فنية.

والمتلقي في هذه الكناية غير فعّال، فهو يأخذ ما تمّ التواضع عليه في التخاطب ويستعمله وظيفيّا للتعبير العادي باعتباره لفظا محدد الدلالة[4].

أما تحسين اللفظ أو لطف التعبير[5] فيقوم على تجنُّب اللفظ المحظور، واستعمال بديل مقبول له، وذلك عند التعبير عن موضوع معين له علاقة بالتابو Taboo[6] أي الحظر أو التحريم وكل ما يتعلق به أو يدور قريبا منه.

---

[2] انظر: فياض، م.س، ص 80.

[3] انظر: سلطان، م.س، ص 103–104.

[4] ن.م، ص 103–105.

وجدير بالذكر أن موضوع الحظر هذا يشمل أربعه جوانب، هي: الأشياء، الأماكن، الأفعال / الأعمال، الكلمات. والجانب الرابع هو الذي يهمّنا هنا.

هذا الحظر نابع من معتقدات قديمة متوارثة تتعلق بالسحر، أو من معتقدات دينية تتعلق بالديانات السماوية الموحدة، أو من موضوعات وتقاليد اجتماعية عامة، أو من نفور نفسيّ خاصّ عند فئة معيّنة أو فرد معيّن.

ويقول الباحثون إن دلالة كلمة "تابو" تتّجه اتّجاهين متضادّين، فهي تعني من جهة شيئا مقدسا منزها، وتعني من جهة أخرى شيئًا غريبًا ممنوعًا أو شيئًا نجسًا، ويمتزج فيها بشكل كبير ما هو مقدس وما هو مخيف.

ولتمييز هذا النوع البلاغي عن النوعين الآخرين المذكورين أعلاه يجب حصره في مجال المحظورات لا غير.

من الأمثلة على هذا التحسين تجنب الناس عادة لكل لفظ يسبّب لهم الخوف أو التطيّر، واستعمالهم لفظا بديلاً مقبولاً يحل محلّه أو يسدّ مكانه.

فبدل أن يقولوا: مات فلان، يقولون: توفي، أو انتقل إلى جوار ربه.
وبدل أن يقولوا: مرض السرطان، يقولون: المرض الخبيث.
وبدل أن يقولوا: الجن والعفاريت، يقولون: الأرواح الشريرة.

---

[5] انظر: أبو خضرة، **م.س**، ص 181. حسام الدين، كريم زكي: **المحظورات اللغوية**. (مصر: مكتبة الأنجلو المصرية، 1985): الكتاب كله. وهبه، مجدي. **معجم مصطلحات الأدب**. (بيروت: مكتبة لبنان، 1974): ص 153.

[6] كلمة "تابو" التي استعملت في اللغات الأوروبية لتعبّر عن الحظر أو التحريم، منذ أواخر القرن الثامن عشر، هي كلمة بولونيزيّة الأصل.

ويكمن وراء تجنّب الناس لبعض هذه الكلمات اعتقاد شعبي قديم هو أن الاسم مقترن بالمسمى، وأن ذِكْر الأول قد يجلب الثاني.

ونحن ما زلنا حتى اليوم نقول: اذكر الذيب وهيئ القضيب. أو: ابن الحلال عند ذكره يبان.
وما زال الكثيرون من أبناء مجتمعنا حين يتجرأون ويذكرون كلمة "الجن" أو "العفاريت" يتبعونها حالا باسم "الله" لإبطال ضررها، وحين يلفظون كلمة "الشيطان" يتبعونها بالتعوّذ من شرّه وأذاه.
ويمكن أن يدخل ضمن هذا المجال من التحسين الابتعادُ في سياقات معينة عن بعض الألفاظ التي تثير الخوف والتطير، واستعمال ألفاظ بديلة مضادة لها في الدلالة، نحو استعمال المفازة بدلا من الصحراء التي كانوا يرونها مَهْلكة، واستعمال السليم بدلا من اللديغ، والقافلة بدلا من أي لفظ آخر يدل على المغادرة أو الذهاب.

وتبقى بعد هذا كلمات معدودة يمكن أن تدخل ضمن هذا الإطار من التحسين إذا اعتبرناها نابعة من الحظر، وأن تدخل ضمن الكناية اللغوية إذا اعتبرناها نابعة من التهذيب واللياقة، نحو استعمالهم لكلمة "الضرير" أو "الكفيف" بدلا من "الأعمى". وأنا أميل إلى اعتبارها داخلة في التحسين لا في الكناية. ومن الأمثلة على التحسين أيضا تجنّب فئات عديدة من الناس للتلفظ باسم "الله" بصورة صريحة، عند الحديث عنه، اسما أو مسمى، وذلك كنوع من الاحترام والإجلال، واستعمالهم بديلاً مقبولاً، نحو: اسم الجلالة، لفظ الجلالة، الخالق، تعالى، عز وجل .. إلخ

ومن المؤكد أن استعمال اللفظ البديل هنا للاحترام والإجلال مختلف تماما عن استعماله في المجال الأول من الكناية اللغوية، أي في مجال التفخيم والتعظيم لإنسان معيّن، لأنه يتعلق هنا بأمر ديني نابع من المحظورات المقدّسة، بينما يتعلق هناك بأمر اجتماعي نابع من التهذيب واللياقة.
ومن الأمثلة الأخرى على التحسين ابتعاد الناس عند التلفظ بكثير من الألفاظ التي تتعلق بالجنس وما يتصل به من أعضاء الجسم، أو استعمال ألفاظ أخرى تسدّ مسدّها.

وفي رأيي أن هذا الابتعاد نابع من مواضعات وتقاليد اجتماعية تمنع التصريح في هذا المجال باعتباره من المحظورات، وليس نابعا من دوافع ذوقية تتصل باللياقة والتهذيب.

أما الإرداف[7] فيقوم على ترك اللفظ الموضوع للمعنى في أصل اللغة، واختيار لفظ آخر ينوب عنه في الدلالة، شرط أن يكون رديفا وتابعا له، وذلك لغرض معنويّ أو فنّيّ.

وهو يشمل كلّ المجالات التي لا تدخل ضمن الكناية اللغوية والتحسين. وإذا قارنّا بينه وبينهما بشكل عامّ وجدنا أنه أكثر منهما اتساعا وشمولا وأكثر استعمالا في الإبداع الأدبيّ.

من الأمثلة على الإرداف قوله تعالى: (واستوت على الجوديّ). (سورة هود، الآية 44)، فقد عُدل عن اللفظ الموضوع في اللغة للمعنى المراد، وهو "توقّفتْ" واستُعمل اللفظ "استوت"، وهو رديفه، لما في هذا الرديف من إشعار باستقرار متمكّن لا زيغ فيه ولا ميل، وهذا لا يحصل من لفظ "توقّفت". وقوله: "والعاديات ضبحا فالموريات قدحا فالمغيرات صبحا" (سورة العاديات، الآيات 1–3)، فقد عُدل عن لفظ الخيل، وهو اللفظ الموضوع في اللغة للموصوف المقصود واستعمل في كل آية من الآيات الثلاث لفظ تابع له: (فالعاديات ضبحا) هي الخيل التي تعدو في الغزو وتضبح، أي تُخرج من أجوافها صوتا حين تعدو؛ (والموريات قدحا) هي الخيل التي توري النار بحوافرها إذا سارت

---

[7] انظر: أبو خضرة، **م.س**: ص 183–188. القيرواني، **م.س**: ج1 ص 313 –321. فياض، **م.س**: ص 35–42، 81. سلطان، **م.س**: ص 118–121. العسكري، أبو هلال. **كتاب الصناعتين**. تحقيق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم .(د.م: عيسى البابي الحلبي وشركاه، د.ت.): ص 360–363. المصري، ابن أبي الإصبع. **تحرير التحبير**. تقديم وتحقيق: حنفي محمد شرف. (القاهرة: د.ن، 1963): ص 207–213. الحموي، ابن حجّة. **خزانة الأدب وغاية الأرب** (د.م: دار القاموس الحديث، 1304 هـ): ص 376–377. مطلوب، أحمد. **معجم المصطلحات البلاغية وتطورها**. (بيروت: مكتبة لبنان ناشرون، 2000): ص 54–56. عكاوي، إنعام. **المعجم المفصّل في البلاغة العربية**. ط2. (بيروت: دار الكتب العلمية 1997): ص 55– 58.

في الأرض ذات الحجارة؛ (والمغيرات صُبحا) هي الخيل التي تغير على العدو وقت الصبح. وتمّ العدول عن اللفظ الأصلي لما في هذه التوابع من تفصيل وإبراز لصفات تلك الخيل.

وقوله "القارعة ما القارعة" (سورة القارعة، الآيتان 1–2)، حيثُ استعمل الإرداف بغرض التهويل، لأن القارعة هي القيامة التي تقرع القلوب بأهوالها.

وقوله: "من شر الوسواس الخناس" (سورة الناس، الآية 4)، وقد استُعمل الإرداف هنا لما فيه من إبراز للصفات السلبية التي يتّصف بها الشيطان. وغنيّ عن الشرح أن استعمال اللفظ البديل للشيطان في القرآن يختلف عن استعماله عند البشر؛ فهو إرداف في القرآن وتحسين عند البشر، إذ ليس في استعماله القرآني أيّ مكان للتحسين.

ومن الأمثلة على الإرداف أيضا قول عز الدين المناصرة مستعملا التناص:

حلفتُ بدم المطعون فوق الخشبة.

فعبارة "المطعون فوق الخشبة" تعني السيّد المسيح. وقد استعمل الشاعر الإرداف هنا لما فيه من إبراز لتفاصيل مؤثرة يهمّه إبرازها.

أما التناص في قوله هذا فهو ارتباطه بقول المصلين المسيحيين عن السيد المسيح في يوم الجمعة العظيمة: اليوم عُلّق على خشبة، الذي علّق الأرض على المياه. وفي هذا القول إرداف أيضا.

ومن الإرداف الذي يتكرر في الحياة والأدب قولنا عن الأسد: ملك الغابة؛ والغاية منه إبراز قوة الأسد وهيبته وتميّزه عن سائر الحيوانات الضارية.

وقولنا عن الشمس: عروس الصباح، لإبراز جمالها وبهائها.

وقولنا عن اللغة العربية: بنت عدنان، لإبراز نسبتها إلى عدنان أصل العدنانيين.

وقد اعتبر الحموي في "خزانة الأدب" تعيين المكان للشيء المقصود رديفًا وتابعًا، فأدخله في الإرداف وأخرجه من الكناية (والمقصود: الكناية الفنية). وبناء على ذلك أورد ضمن أمثلة الإرداف قول البحتري:

فأتبعتها أخرى فأضللتُ نصلها　　　بحيثُ يكون اللبُّ والرعب والحقدُ[8]

وقياسا عليه يمكن أن يدخل في الإرداف، وليس في الكناية الفنية، قول أحد الشعراء:

ودبّ لها في موطن الحِلم علةٌ　　　لها كالصِّلال الرُّقْش شَرُّ دبيبِ

فموطن الحلم هو القلب، واستعمال الإرداف هنا يأتي لإبراز دور القلب وأهميته من ناحية كونه موطنا لعنصر مهمّ من عناصر المروءة.

وقد خلط الكثيرون من البلاغيين بين الإرداف والكناية الفنية (خاصّة الكناية عن صفة والكناية عن موصوف) فاعتبر بعضهم قول عمر بن أبي ربيعة "بعيدة مهوى القرط" من الإرداف، والصحيح أنه من الكناية الفنية، لأن الانتقال فيه من معنى إلى معنى، لا من لفظ إلى لفظ.

واعتبر آخرون من الإرداف قول امرئ القيس:

ويُضحي فَتيتُ المسك فوق فراشها　　　نؤوم الضحى لم تنطق عن تفضّلِ

والصحيح أنه من الكناية الفنية.

ويمكن أن يوسّع مدلول الإرداف أكثر مما هو وارد في كتب البلاغة القديمة والحديثة ليشمل استعمال النعت بدل المنعوت، نحو قول امرئ القيس في وصف الحصان:

وقد أغتدي والطيرُ في وُكُناتها　　　بمنجرد قيد الأوابد هيكل

---

[8] انظر الحموي، م.س، ص376.

ويشمل استعمال كلمة "الأخ" مضافة إلى اسم ظاهر أو ضمير ، حين لا يقصد الأخ الحقيقي، نحو قول تأبط شرًا:

ولكن أخو الحزم الذي ليس نازلا   به الخطبُ إلا وهو للقصد مبصرُ

وقولَ قريط بن أنيف:

لا يسألون أخاهم حين يندبهم   في النائبات على ما قال برهانا

كما يمكن أن يشمل كثيرًا من التراكيب الإضافية التي تتكون من كلمة "ذو" مضافة إلى اسم ظاهر، نحو قول إيليّا أبو ماضي:

لذي الجناح وذي الأظفار بي وطر   وليس في العيش لي في ما أرى وطرُ

وللتلخيص أقول: إننا إذا أردنا الفصل بين هذه الأنواع الثلاثة والتمييز بينها بصورة دقيقة إلى حد كبير، فلا بدّ من حصر النوعين الأوّل والثاني (أي الكناية اللغوية وتحسين اللفظ) في مجالات محددة لا يتجاوزانها، واعتبار كل المجالات الأخرى دون أي تحديد داخلة في الإرداف، مع الانتباه لما يمكن أن يحدث من تداخل بين الإرداف والكناية الفنية التي لا علاقة لها إطلاقا باللفظ البديل.

خاتمة:

يتناول هذا البحث ثلاثة أنواع بلاغية يتمّ العدول فيها عن اللفظ الأصلي الموضوع في اللغة للتعبير عن مدلول معيّن، واستعمال لفظ آخر بدلاً منه، في الحياة والأدب، لسبب معين أو لغرض وظيفيّ أو فنّيّ. هذه الأنواع الثلاثة هي: الكناية اللغوية، تحسين اللفظ أو لطف التعبير، الإرداف.

لقد خلط البلاغيون وغيرهم بين هذه الأنواع خلطًا واضحًا، كما خلطوا بينها وبين الكناية الفنّية. ولذا فإن الباحث يحاول هنا أن يضع حدودًا فاصلة بين الأنواع الثلاثة من جهة، وبينها وبين

الكناية الفنيّة من جهة أخرى، تستطيع أن تمنع الخلط. وقد ذكر لهذا الغرض مميزات كل نوع ومجال أو مجالات استعماله.

فالكناية اللغوية تقوم على ستر اللفظ الأصلي، واختيار لفظ بديل، لغرض وظيفي في الأساس، ونادرًا ما يكون فنيّا. وينحصر هذا الغرض الوظيفي في المجالات الثلاثة التالية: التفخيم والتعظيم لإنسان معيّن، التّعمية والتغطية، الابتعاد عن اللفظ البذيء.

أما تحسين اللفظ أو لطف التعبير فيقوم على تجنب اللفظ المحظور، واستعمال بديل مقبول له، وذلك عند التعبير عن موضوع معيّن له علاقة بالتابو Taboo أي الحظر والتحريم.

أما الإرداف فيقوم على ترك اللفظ الموضوع للمعنى في أصل اللغة، واختيار لفظ بديل شرط أن يكون رديفًا وتابعًا له، وذلك لغرض معنوي أو فنّيّ. وهو يشمل كل المجالات التي لا تخصّ النوعين السابقين.

أما الكناية الفنّية فهي التعبير عن المعنى المقصود بصورة غير مباشرة، من خلال معنى فرعيّ يتبعه في الوجود ويكون دليلاً عليه، ولا علاقة للكناية الفنّية باللفظ البديل.